المفارقة التصويرية في القرآن الكريم

دراسة أدبية لآيات مختارة

الباحث

محمد صبحي عبدالفتاح الجمال

أستاذ الأدب والنقد المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية بدسوق

MELGAMEL2000@YAHOO.COM

عنوان البحث المفارقة التصويرية في القرآن الكريم دراسة أدبية لآيات مختارة

اسم الباحث محمد صبحي عبدالفتاح الجمال
الإيميل MELGAMEL2000@YAHOO.COM

الكلمات المفتاحية القرآن الكريم – المفارقة التصويرية – المفارقة اللفظية – مفارقة النغمة مفارقة الشخصيات – مفارقة السلوك الحركي– المفارقة في الشعر العربي الترغيب والترهيب – التهكم والسخرية

التوصيف الوظيفي أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية الدراسات الإسلامية بدسوق

ملخص البحث

القرآن الكريم كتاب الفطرة ودستور البشرية ، تتجلى في آياته وسوره ملامح الوجود وصورة الحياة بما فيها من متناقضات ومفارقات ، وتتعدد أنماط المفارقة بين مفارقة تصويرية ومفارقة لفظية ومفارقة النغمة ومفارقة السلوك الحركي، ويقتصر البحث على المفارقة التصويرية التي تظهر التناقض بين طرفين متقابلين كالخير والشر والحق والباطل والثواب والعقاب ، وهي أعم وأشمل من الطباق والمقابلة وأقرب إلى الصورة الكلية التي كثر ورودها في الشعر العربي قديما وحديثا ، وتتجلى في عدد من المقاصد والمحاور منها :

- التهكم والسخرية ، وتعد سلاحا موجعا لأعداء الإسلام والغافلين عن الهدي الرباني نظرا لما تحمله الكلمة الساخرة في طياتها من ألم معنوي يجاوز في وقعه الألم الحسي
- الترغيب والترهيب ، وهو من الأساليب التربوية التي أرسى القرآن دعائمها صيانة للإنسانية وهداية للبشرية ، نظرا لما تتيحه المفارقة في هذا السياق من التمييز بين سبيلي الخير والشر ليكون باعثا على الاختيار الرشيد والاستجابة للأوامر الإلهية.
- مفارقة الشخصيات ، وتدل على الإعجاز القرآني في رسم الشخصيات وتصوير النماذج البشرية سواء في ذلك الشخصيات التي تتجلى فيها قيم الحق والخير والهداية أم التي تجسد الباطل والشر والضلال كي تبقى ماثلة في الأذهان محمّلة بالعبر والعظات .

وبوجه عام فإن هذه الصفحات تضع إشارات هادية وتفتح الباب لمن آنس في نفسه رغبة في التأمل في البيان القرآني .

Research abstract

The graphic paradox in the Holy Quran
Literary study of selected verses

Mohamed Sobhi Abdel-Fattah Al-Gammal
Professor of literature and associate criticism
In the Faculty of Islamic Studies, Desouk
MELGAMEL2000@YAHOO.COM

The Holy Qur'an is the book of instinct and the constitution of mankind. The features of existence and the image of life are illustrated in its verses and surahs, including contradictions and paradoxes . There are multiple forms of paradox and their patterns vary among pictorial paradox, verbal paradox, tone paradox and kinetic behavior paradox. This study focuses only on pictorial paradox which shows contradiction between two contradicting sides such as good and evil ,right and wrong , reward, and punishment . This is more general and broader than antithesis and contradiction and closer to the overall picture that poets used in ancient and modern times .This is manifested in a number of patterns and purposes, including:

- Irony and satire which is a painful weapon for the enemies of Islam and the unaware of the divine guidance, given the moral word that carries with it moral pain that exceeds the impact of sensory pain.

Encouragement and intimidation, which is one of the pedagogical methods that the Qur'an has laid down its foundations for the preservation of humanity and a guiding for humanity, given the paradox in this context that allows the distinction between good and evil to be a reason for rational choice and responding to divine orders.

- The paradox of the characters which denotes the Qur'anic miracle in drawing figures and depicting human models, whether that includes figures that reflect the values of truth, goodness and guidance, or that embody falsehood, evil and delusion in order to remain fresh in minds loaded with lessons and sermons.

In general, these pages set guiding signs and open the door for someone who has a certain desire to go deeper in the Qur'anic rhetoric.

Keywords:
Holy Quran - pictorial paradoxes - verbal paradoxes - paradoxes of tone

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، خير مبعوث إلى خير أمة بخير دين وبعد ،

فإن المفارقة محور الحياة البشرية وجوهر الوجود الإنساني ، ونحن لا نستطيع أن ندرك حقيقة الحياة وجوهرها إلا من خلال إدراكنا لما يكتنفها من المتنافرات والمتناقضات، ولا غرابة فإن الصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر، والحياة والموت، قائم منذ الأزل حتى نهاية الوجود ،

وما دام القرآن الكريم هو دستور الحياة وكتاب الفطرة والسفر الخالد الذي أعجز الإنس والجن فإن من البدهي أن تتجلى في سوره وآياته صورة الوجود وملامح الحياة وفي طليعتها ما تنطوي عليه من مفارقات ، ولقد ذهب المفسرون إلى تأكيد هذه الخصيصة وذلك في تفسيرهم لوصف القرآن الكريم بالمثاني ، يقول الرازي: (إن أكثر الأشياء المذكورة فيه وقعت زوجين زوجين مثل الأمر والنهي والعام والخاص والمجمل والمفصل وأحوال السماوات والأرض والجنة والنار والظلمة والضوء واللوح والقلم والملائكة والشياطين والعرش والكرسي والوعد والوعيد والرجاء والخوف) [١] ويقول ابن كثير: (إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذا من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار وما أشبه فهذا من المثاني) [٢]

ومفهوم المفارقة في اللغة لا يخرج عن معنى الفصل والتفريق بين الشيئين[٣] وفي الاصطلاح (ترجع أصول هذا الأسلوب إلى البلاغة العربية التي انصب اهتمامها على لون

---

(١) مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٠ م ٢٦، ٢٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم دار الأندلس بيروت ط أولى ٨٨/١٩٦٦١

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري دار العلم للملايين بيروت ط الرابعة ١٩٨٧ مادة (فرق)

من التصوير البديعي القائم على مبدأ متضاد سواء أكان في شكله البسيط (الطباق) أم في صورته المركبة (المقابلة) ، ومن المعلوم أن هذا المبدأ يقوم على الجمع بين المتضادات اللفظية في بيت أو عبارة ويشتمل على تناقض واقعي بين أجزاء المفارقة)[١]

والمقصود بالمفارقة التصويرية التي يتناولها هذا البحث (التقابل بين الصورة الكلية بما هي عليه من نسق خاص وبما فيها من إيقاع موسيقي وانفعال نفسي وبين ما يقابلها في صورة كلية أخرى هي على النقيض تماما من سابقتها) [٢] وتعد المفارقة من قبيل الظواهر البلاغية كالطباق والمقابلة والصورة الأدبية فضلا عما يربطها بفنون الهجاء والسخرية من وشائج وعلاقات .

ويتكون البحث من عدة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد وتعقبها خاتمة بالإضافة إلى الفهارس :

- المقدمة : وتتضمن أسباب اختيار الموضوع
- التمهيد : ويهدف إلى إلقاء الضوء على أنماط المفارقة مع الإشارة إلى نماذجها في القرآن الكريم والشعر العربي القديم والحديث .
- المبحث الأول : التهكم والسخرية
- المبحث الثاني الترغيب والترهيب
- المبحث الثالث : مفارقة الشخصيات
- الخاتمة : وتتضمن خلاصة بأهم نتائج البحث

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل

---

(١) المفارقة التصويرية في شعر معروف الرصافي حميد ولي زاده مجلة إضاءات نقدية العدد الثاني عشر سنة ٢٠١٣، ٢١٩

(٢) الصورة الأدبية في القرآن الكريم دكتور صلاح عبد التواب لونجمان ط الأولى ١٣٥،١٩٩٥ بتصرف

التمهيد

أنماط المفارقة

أولا : المفارقة التصويرية

ويقصد بها : (إبراز التناقض بين طرفين متقابلين) [١] وهي أعم وأشمل من الطباق والمقابلة سواء من ناحية بنائها أومن ناحية وظيفتها ، وإذا كانت الأشياء تتمايز بأضدادها كما هو معلوم فإن التمايز في المفارقة يكون أوضح والاستدلال بها على الإعجاز الأدبي للقرآن الكريم يكون أبلغ وصفا وأعمق أثرا، (فمن خلال مقابلة الوجه الثاني بكل ملامحه بالوجه الأول بكل ملامحه أيضا تبرز فداحة المفارقة ويتجاوز إيحاؤها في كل من الطرفين مدى لا يصل إليه تصوير كل طرف منفردا ، لأن كلا من الطرفين يلقي بظلاله على الآخر فتبرز ملامحه ويزيدها وضوحا وجلاء) [٢]

وفيما يلي عرض لأظهر نماذج المفارقة التصويرية في القرآن الكريم : يقول الله عز وجل عن حشود الكفار حين يساقون إلى دار العقاب وجموع المؤمنين حين يساقون إلى دار الثواب والنعيم :**(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)**

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة علي عشري زايد مكتبة الشباب١٤٧ بتصرف

(٢) السابق ١٥٣بتصرف

والمتأمل في وصف القرآن الكريم للفريقين – وهما يمثلان طرفي المفارقة – يلحظ أنه وصف الفريق الأول بوصف لا يقبل الجدل وهو الكفر وكفى به جناية تستحق ما ترتب عليها من العقوبة ، وعبر عن اقتيادهم إلى النار بلفظ السوق والمراد (طردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل) [١]، ويتضمن التعبير بقوله (فتحت) ألوانا من العذاب المباغت وصنوفا من النكال المفاجئ بما يعقبه من هول الموقف وبشاعة المنظر وسوء المنقلب ، ولا يقتصر التعذيب على هذه الألوان الحسية وإنما يعقبها ألوان من التعذيب النفسي والتبكيت المعنوي المتضمن في مخاطبة الملائكة لهؤلاء الكفرة على سبيل التوبيخ والتقريع (ألم يأتكم رسل منكم .....الآية) ، وفي ختام المشهد تصغي الآذان والأفئدة للأمر الإلهي والقرار الملكي : (قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) وقد عبر بالبناء لما لم يسم فاعله (قيل) إمعانا في حشد صنوف الرعب ومضاعفة لما يعتمل في تلك النفوس الجاحدة من الخوف والفزع.

وفي المقابل تصور لنا الآيات مشهد التكريم للأتقياء باستخدام الألفاظ نفسها كالسوق والزمر لكن شتان بين سوق وسوق ، (فالكفار يساقون إلى النار عنفا، والمؤمنون يساقون إلى الجنة لطفا) [٢] ولقد تخير القرآن من أوصاف المؤمنين صفة التقوى ذلك المعيار الأزلي الذي اختاره الله للمفاضلة بين خلقه وضمانا للانقياد للأوامر الإلهية ظاهرا وباطنا سواء في مراقبتهم للخالق أم في علائقهم بالمخلوقين، ويكفي دليلا على التكريم لأولئك الأتقياء ما يتضمنه قوله سبحانه: (وفتحت أبوابها) إيذانا بالحفاوة وإدخالا للسرور على تلك النفوس النقية ، (والواو في قوله: وَفُتِحَتْ واو الحال للدلالة على فتح الأبواب سابقا وعلى الترحيب بهم، ولاستعجال السرور قبل الدخول إذا رأوها مفتوحة، وصيانة لهم

(١) الكشاف للزمخشري دار الكتاب العربي بيروت الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ هـ ١٤٧/٤

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ت إبراهيم البسيوني الهيئة المصرية العامة للكتاب ط الثالثة٢٩٢/٣

عن المذلة التي يلقاها من يجد الباب مغلقا في وجهه) [١] ناهيك عما يبادرهم به خزنة الجنة من نعمة السلام الخالدة بما تحمله في طياتها من معاني البشر والسلامة وابتداء النعيم والخلود في الجنة ، والمتأمل في كلا المشهدين يلحظ ما يسلطه أحدهما على الآخر من أضواء وما يلقيه عليه من ظلال تبرز ملامحه وتزيده وضوحا وجلاء .

ثانيا : المفارقة اللفظية :

ودراسة هذا النمط تقتضي انتقال اللفظ من حقله الدلالي إلى حقل دلالي آخر يدل عليه السياق ويحدس به القارئ المتمكن من فنون اللغة ووسائل التعبير ، ويرتبط هذا النمط بكثير من أشكال التعبير اللغوي كالمشترك اللفظي ، ومن الأمثلة القرآنية على هذا النمط اللفظي قول الحق سبحانه : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) [٢] (فالبشارة في لغة العرب دائما للخير والمادة كلها تدور حول ما يبعث على السرور ، وحين يسمع العربي لفظ البشارة فإنه يفهم منها بداهة أن الله سبحانه يكلف رسوله أن يحمل إلى أعداء الله بشرى تدخل إلى نفوسهم السرور وتملأ قلوبهم بالبهجة ، ولكنه يفاجأ بأن هذه البشرى التي يحملها إليهم الرسول إنما هي عذاب ، بل عذاب أليم ، وهنا يحدث التناقض الذي يثير في النفس الطرافة والعجب ، كما أن أعداء الله حين يسمعون أن هناك رسولا يحمل إليهم بشرى فإن نفوسهم لأول وهلة تمتلئ بالرضا والتطلع إلى الخير والسرور المنتظر لكنهم يفاجأون بأن البشرى التي تزف إليهم إنما هي عذاب أليم ، ومهما يكن الزمن بين الأمرين وجيزا ستحدث في نفوسهم صدمة أو نوع من الإحباط ، والأهم من ذلك هو تعذيبهم نفسيا بهذه السخرية منهم ومن حالهم لما تتضمنه من إهانة

(١) التفسير الوسيط د وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ١٤٢٢ – ٣،٢٢٥٤
(٢) سورة التوبة الآية ٣٤

واستخفاف) [١] ولا يخفى على القارئ المتيقظ ما تحمله تلك اللفظة القرآنية من دلالة على التنفير من هذه المسالك البغيضة التي يسلكها مانعو الزكاة فضلا عما تدل عليه البشارة بالعذاب من التهكم والسخرية من أولئك المتعاظمين وأضرابهم في كل زمان ومكان جزاء وفاقا على استهزائهم بالفقراء وسخريتهم من المؤمنين .

ثالثا : مفارقة النغمة

وهي ما عبر عنها الدكتور محمد عبد الله دراز بالجمال التوقيعي في توزيع الحركات والسكنات والمدات والغنات والاتصالات والسكتات مما يحقق الاتساق والائتلاف الذي يسترعي من السمع ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وهذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن حتى الذين لا يعرفون لغة العرب) [٢]

وتعد أواخر سورة الفجر من أوضح النماذج التي تتجلى فيها تلك الخاصية القرآنية ، يقول الدكتور صلاح عبد التواب : (ومما زاد في روعة الأسلوب القرآني ذلك الانسجام التام بين الإيقاع الصوتي والموقف الذي سيق من أجله، فيتنوع الإيقاع بتنوع الأجواء المصاحبة له كما في قوله تعالى في سورة الفجر (كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ۝ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝ يا أيتها النفس المطمئنة ۝ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً ۝ مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وادخلي جنتي) فبينما تدوي الكلمات بوقعها وإيقاعها في (دكّت ، دكّا دكّا ، صفّا صفّا، وجيء يومئذ بجهنم ، يعذب عذابه ، يوثق وثاقه ، يقول : بينما تعنف هذه الكلمات وتشتد لعنف الموقف ورهبته إذا بموقف هادئ مقابل للموقف

(١) التصوير الساخر في القرآن الكريم د .عبد الحليم حفني الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢، ٢٢٤

(٢) ينظر: النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز دار طيبة ط الأولى ١٩٩٧، ١٢٧ وما بعدها

الصاخب بل ويليه مباشرة وأي موقف أهدأ من ذلك الموقف الذي ترشد إليه تلك المعاني والإيقاعات معا ؟ يا أيتها النفس المطمئنة ۰ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً ۰ مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وادخلي جنتي) [١]

والآيات تشعرنا بأن التنعيم والتعذيب كما أسندا إلى خزنة الجنة وخزنة النار من الملائكة قد أسندا إلى الجمل والعبارات أيضا ، ويكفي المجرم من العقاب أن تصك أذنيه تلك الكلمات بوقعها المؤلم ونبرتها الحادة وأسلوبها الصارم ، وحسب المؤمن في الثواب أن يرهف السمع لتلك اللغة الهادئة والأوصاف الحانية والخطابي الراقي والإيقاع القرآني العذب .

رابعا : مفارقة السلوك الحركي :

وتتمثل في الحركات العضوية أو الحركات الجسمية التي تثير الغرابة والسخرية (ويبنى هذا النوع من المفارقة على رسم السلوك الغريب في دوافعه ومسبباته رسما لغويا حصيلته صورة تكني عن الدلالة الثانية والمعنى غير المباشر الذي يتضاد هنا مع حقيقة الشيء وأصله) [٢]

ومن أمثلتها – وهي كثيرة – قوله سبحانه في وصف مسالك أهل النفاق : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور) ، (وكأنهم ظنوا أنهم يقدرون على الاستخفاء من خالقهم ومالك أمرهم وأن الاستخفاء منه أمر هين لا يكلفهم إلا ثني الصدور ، وإذا تأملنا السياق اللغوي الكبير لقرينة هذه المفارقة رأينا أنها وقعت بين عبارتين تجعلان أمر هذه الحركة الجسمية أمرا مضحكا حقا) [٣]

وفي قوله تعالى : (ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا) نلحظ أن المفارقة توسع الظالمين تهكما وذما وتعبر عن

---

(١) الصورة الأدبية د. صلاح عبد التواب ٨٧

(٢) سورة الفرقان ٢٧

(٣) المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د. محمد العبد مكتبة الآداب ط الثانية ٢٠٠٦،١٤٦

الشعور بالندم أبلغ تعبير وأوفاه (فالموقف أشد هولا والحسرة أشد ألما والندم قد بلغ منتهاه ، ولذلك صورت حركته بصورة أقوى وأشد من عض الأنامل غيظا وحسرة ، ففي هذا السياق لا يعض أنامله فقط ولا يعض يدا واحدة لأنها لا تشفي ما به من الحسرة والندامة وإنما هو يعض على يديه معا يداول بين هذه وتلك أو يجمع بينهما لشدة ما يعانيه من هول الموقف إذ النفس هنا والهة مكروبة يحيط بها العذاب من كل جانب فتتذكر ما حدث لها في الدنيا فتندم أشد الندم ولات ساعة مندم ، فيجسم حالته النفسية التي هي في قمة انفعالها وثورتها وندمها على ما فات بعضّ اليدين لبيان مدى الحسرة والندم وشدة التفجع بعد فوات الأوان) [1]

المفارقة في الشعر العربي

عرف الشعر العربي المفارقة التصويرية واستعملها الشعراء في العصور المتعاقبة استعمالا يؤكد وعيهم بتلك الطرائق التعبيرية خلافا لمن يزعم استئثار الغربيين بها ، ومن النماذج التي تتجلى فيها المفارقة تلك القصيدة الذائعة لأبي البقاء الرندي التي مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

وفيها يسلط الأضواء على حقبتين من حقب التاريخ الإسلامي في الأندلس وما شاده بناة الحضارة هنالك من مفاخر وأمجاد ومنها قوله :

أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ ... وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ ؟

والقصيدة تمثل إحدى العلامات البارزة في الشعر العربي لطرافة موضوعها وعمق أثرها في النفس العربية ، ولا غرابة فإن الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس كانت محط الأنظار وقبلة العلماء وملتقى الأدباء ومعقل الملوك

(١) البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية د.عبد الله هنداوي م الأمانة ٥٧

والأمراء ، فلقد انصهر في بوتقتها العرب والفرس وأعلى صروحها الشرق والغرب ، وأقبل على مائدتها العامرة شداة الأدب والشعر ، وسرعان ما أتت الرياح بما لا تشتهي السفن فأمست الديار خرابا والحضارة بلقعا والأنس وحشة ودمارا، يقول الرندي مصورا المأساة التي حلت بالديار وما آلت إليه من فجائع ونكبات :

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة ... وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوان يسهّلها ... وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له ... هوى له أُحدٌ وانهدّ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتحنتْ ... حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ (مُرسيةً) ... وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ)
وأين (قُرطبةٌ) دارُ العلوم فكم ... من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين (حْمصُ) وما تحويه من نزهٍ ... ونهرهُا العَذبُ فيّاضٌ ومِلآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما ... عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من أسفٍ ... كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ
على ديار من الإسلام خالية ... قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما ... فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ[1]

بهذا التجاور الحاد بين العمران والخراب استطاع الرندي أن يلهب العواطف ويسعر القلوب والمشاعر حزنا على ما آل إليه حال هذا الإرث الحضاري العتيد ، وتلك الصروح الدامية ، وهذا ما نجح أسلوب المفارقة في التعبير عنه أصدق تعبير وأجمله وأوفاه.

وتتعالى صيحات الباكين على التراث العربي فتجاوبها في العصر الحديث تلك الصيحة التي أرسلها الشاعر الرقيق نزار قباني متخذا من أسلوب المفارقة سبيلا إلى البث والإفضاء ، يقول الدكتور علي عشري زايد : (يبني الشاعر

(١) رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي جمع عيسى بن محمد الشامي كنوز الأندلس ٣٥

قصيدته أحزان في الأندلس على مفارقة تصويرية كبيرة طرفها الأول ماضي العرب في الأندلس وما كانوا عليه من قوة وبأس وسلطان ومجد، وطرفها الثاني ما آل إليه هذا المجد من انطفاء وخمول، والشاعر يصرح بكلا الطرفين لا يخلطه بالآخر ولا يسقط عليه أيا من ملامحه وسماته ، يقول عن الطرف الأول مصورا عزة الماضي العربي:

كتبتِ لي يا غالية

كتبت تسألين عن إسبانية

عن طارقٍ يفتح باسم الله دنيا ثانية

عن عقبة بن نافع ٠٠ يزرع شتل نخل في قلب كل رابية

سألت عن أمية ٠٠سألت عن أميرها معاوية

عن السرايا الزاهية

تحمل من دمشق في ركابها حضارة وعافية

ثم ينتقل إلى تصوير ملامح الطرف الثاني المتمثل فيما آل إليه هذا المجد من انطفاء وذبول :

لم يبق في إسبانية

منا ومن عصورنا الثمانية

غير الذي يبقى من الخمر بجوف الآنية

لم يبق من قرطبة سوى دموع المئذنات الباكية

سوى عبير الورد والنارنج والأضالية

لم يبق من ولاّدة ومن حكايا حبها قافية ولا بقايا قافية

لم يبق من غرناطة ومن بني الأحمر إلا ما يقول الراوية

فالشاعر يصور كلا من الطرفين مستقلا عن الآخر ، الطرف الأول بما يحمله من عبير المجد والعزة والخلود ، والثاني بكل ما آل إليه هذا المجد من اضمحلال وخمود ، ومن خلال وضع كل من الطرفين إزاء الآخر يبدأ التفاعل

بينهما وتبرز المفارقة) [1] ولا شك أن أسلوب المفارقة هو أفضل الأساليب العربية للتعبير عن تلك الأحوال المتناقضة فضلا عما يوحي به من التفاعل الإيجابي بين المبدع والمتلقي .

❁❁❁❁❁

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة – علي عشري زايد مكتبة الشباب ١٤٠

المفارقة التصويرية .. أنماطها ومقاصدها

المبحث الأول

التهكم والسخرية

تتنوع الأساليب القرآنية تبعا لتنوع المواقف والأحداث ، وتعد السخرية من الأساليب القرآنية الموجعة التي صوبها الاقتدار الإلهي نحو الكفار والمنافقين ، يقول الدكتور عبد الحليم حفني : (والسخرية سلاح فعال ضد أعداء الإسلام الذين تنال منهم الكلمة الساخرة والعبارة التهكمية أضعاف ما تخيفهم القوة العسكرية أو الأسلحة المادية) (١)

ونستطيع أن نلمح آثار التهكم والسخرية واضحة جلية في كثير من النماذج القرآنية ومنها قول الله عز وجل في سورة الأعراف : (إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ومن أهم مقاصد المفارقة في الآيات السابقة السخرية من أولئك المكذبين والمستكبرين الذين أحاطوا ذواتهم بهالات من الغرور والاستعلاء فاستحقوا أن يحاطوا بالنيران الجهنمية من كل حدب وصوب بعد أن استحال عليهم دخول الجنة كما يستحيل في عرف العقلاء ولوج الجمل البالغ الضخامة في الثقب الممعن في الضيق ، ولا غرابة فإن الجزاء من جنس العمل كما قضت الحكمة الإلهية منذ الأزل ، وهؤلاء الحمقى المغترون قد ارتكسوا في هوة التكذيب بالآيات الربانية ودلائل العظمة الإلهية ،

(١) ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم ٦وما بعدها

وحسبك دليلا على ذلك تلك الإضافة التي تنخلع من هولها القلوب وترتجف من عظمتها الأفئدة (بآياتنا) لكنهم لجّوا في الغواية وأمعنوا في التكذيب والاستكبار وكفى بهذا المسلك إجراما وظلما واستحقاقا لهذا المصير الفاجع والعقاب المؤلم ، والتعبير عن فراش المجرمين بالمهاد يحمل في طياته ألوانا من السخرية وصنوفا من التعذيب النفسي حيث يوهم أولئك المغترين بإعداد الفرش وتهيئة البسط لاستقبالهم لكنها بسط نارية وفرش جهنمية لا تعدو أن تكون أداة لمزيد من التعذيب والتنكيل ، ويلحق بالمهاد الغواشي ذلك أن الغطاء يناط به الدفء وترجى منه الحماية لكن غواشي المجرمين لا تعدو كونها أدوات تعذيب ووسائل عقاب إمعانا في غشيان العذاب وإحاطته ،

وكما جرت سنة القرآن في الجمع بين الوعد والوعيد تصور الآيات التالية لونا يسيرا مما أعدّ للأتقياء الأصفياء الأنقياء وكفى بصفاء قلوبهم ثوابا ونعيما حيث لا غلّ ولا حقد ولا حسد ، ولا غرو فإنهم لا يرون أحدا يسبقهم في مضمار الثواب الأخروي ، (وجاء قوله تعالى " لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها " جملة اعتراضية، للتنبيه على أن الجنة مع عظم مكانها يسهل الوصول إليها، فقاعدتها الإيمان الصحيح، وطريقها العمل الصالح المؤدي إلى الجنة، وهو أمر سهل هيّن على النفوس لا مشقة فيه ولا حرج ولا زيادة فيه على مقدور الإنسان ، ومن نعم الله تعالى التي أخبر بها عن أهل الجنة أيضا : صفاء نفوسهم، وسلامة صدورهم، حيث ينقّي الله قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، حتى لا يكدّرهم مكدّر، ولا يؤلمهم ألم، ولا يحزنهم فزع، ولا يحدث بينهم شرّ، وذلك أن صاحب الغل أو الحقد متعذّب به، ولا عذاب في الجنة)[1] يضاف إلى ذلك أن الكبر لا يعرف لأنفسهم النقية سبيلا ، فالشكر لله شعارهم والحمد له سبحانه ديدنهم ، برغم ما يتقلبون فيه من ألوان النعيم كالسرر المرفوعة والأنهار الجارية .

(١) التفسير الوسيط د. وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ١٤٢٢ ، ٦٥٩/١

وفي سورة المعارج ترسم المفارقة صورة للإنسان بين الاستسلام للطبع البشري الكنود والتسليم للقدرة الإلهية العظمى حيث تتبدى للمتلقي صورتان غاية في التناقض : الأولى ترتسم على ملامحها مشاعر القلق والجزع والاضطراب وحسبك بهذه الأوصاف دليلا على السخرية والتهكم ، والثانية تتجلى فيها آثار الإيمان واليقين والسكينة ، (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ)

والآيات ترسم للإنسان صورة متكاملة الملامح محددة المعالم واضحة القسمات من خلال تلك العبارات المحددة والكلمات الموجزة ، وهي صورة بائسة للإنسان حين تخبو أضواء الإيمان في قلبه وتعصف به مشاعر القلق والاضطراب فتراه هلوعا جزوعا عند مسّ الشّرّ ذاهلا عن ربه ناسيا آثار رحمته سبحانه ، بينما تأنس به أرواح المؤمنين وتطمئن بذكره قلوب المتقين ، ومن طبائع هذا الإنسان أنه منوع للخير حريص عليه لكونه لم يفقه حقيقة الرزق ولم يع أن مصدر النعم ومن بيده مفاتيح الخير كلها إنما هو الله وحده ، ثم يتجه القرآن إلى سرد أوصاف المؤمنين مستثنيا إياهم من الهلع والخوف والقلق والاضطراب ومفصّلا جملة من العبادات التي تصطبغ بها نفس المؤمن فتتهذب نفسه ويذعن لأوامر ربه ويتخلص من أدران الأثرة والجزع : (إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ) والصلاة ركن الإسلام وعلامة الإيمان ووسيلة الاتصال بالله ومظهر العبودية الخالصة لله سبحانه ، وقوله :

(الَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ دائِمُونَ) تعطي صورة الاستمرار والمداومة بما يترتب عليهما من اطمئنان القلب وصفاء النفس وسكينة الروح ، (وَالَّذِينَ فِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) أي يجعلون في أموالهم نصيبا معلوما يشعرون أنه حق للسائل والمحروم وفي هذا شعور بواجب الأغنياء تجاه الفقراء والمحرومين ، (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) وهذه الصفة ترسم ملمحا أساسيا من ملامح النفس المؤمنة ، فالتصديق بيوم الدين شرط أساسي من شروط الإيمان الذي يقوم عليه منهج الحياة (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ . إِنَّ عَذابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ) وهي صفة تدل على الحساسية المرهفة ، والرقابة الذاتية والشعور بالتقصير برغم الرصيد الهائل من أعمال البر وخصال الخير (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ . إِلَّا عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ) وهذه الآيات تدل على طهارة النفس ونبل الصفات وفي الوقت ذاته تتضمن التسليم بالطبيعة البشرية ومتطلباتها الأساسية ، (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَماناتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ راعُونَ) لأن رعاية الأمانات من القيم الأخلاقية التي يقوم عليها نظام المجتمعات ، (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهاداتِهِمْ قائِمُونَ) وأداء الشهادة من سمات المؤمنين أفردها بالذكر لتعظيم شأنها وإبراز أهميتها ، وكما بدأ سمات النفوس المؤمنة بالصلاة، ختمها كذلك بالصلاة (وَالَّذِينَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ) (وذكر الصلاة في المطلع والختام يوحي بالاحتفال والاهتمام، وبهذا تختم سمات المؤمنين وهنا يقرر مصير هذا الفريق من الناس بعد أن قرر مصير الفريق الآخر (أُولئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ) [1]

ويجمع هذا النص القصير بين النعيم الحسي والنعيم الروحي، فهم في جنات ويلقون الكرامة في هذه الجنات فتجتمع لهم اللذة بالنعيم مع الحفاوة والتكريم ،

(١) تفسير القرآن العظيم ٨، ٢٤٠

وهكذا تتجلى آثار الإسلام في نفوس أتباعه طمأنينة في الدنيا ونعيما في الآخرة .

وتعد المفارقة الساخرة هي جوهر سورة القارعة ومحورها الأساس : (الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾)

والسورة بكاملها تقوم على المقارنة بين طائفتين : الأولى كانت في الدنيا حريصة على الاستكثار من الأعمال الصالحة التي تثقل الموازين وترفع الدرجات وتضاعف الحسنات ، أما الطائفة الأخرى فقد تجاهلت الأوامر الإلهية وتغافلت عن الآخرة بالكلية وقدمت على ربها بأكف فارغة من الطاعات وميزان خاو من الحسنات في يوم ترتجف فيه القلوب وتنخلع من هوله الجبال ، (فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية) والاكتفاء بوصف العيشة بالرضا يلقي في النفس ظلال النعيم ويبث في الروح السعادة والاطمئنان فضلا عما يوحي به ثقل الموازين من إيحاءات مبشرة ودلالات محببة (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ) أي : وزن حسناته (فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) (أي : فمأواه ومسكنه الهاوية التي يأوي بها على رأسه في جهنم ، فسمّى المأوى أُمًّا على التشبيه تهكّما؛ لأن أم الولد مأواه ومستقره ، والأمّ هي مرجع الطفل وملاذه، فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية ! وفي التعبير أناقة ظاهرة، وتنسيق خاص وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود: «وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ؟» ..سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك ، ثم يجيء الجواب كنبرة الختام: «نارٌ حامِيَةٌ» هذه هي أمّ الذي خفت موازينه ! أمّه التي يفيء إليها ويأوي! والأم

عندها الأمن والراحة فماذا هو واجد عند أمّه هذه.. الهاوية.. النار.. الحامية!! إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية) [١]

هذه النماذج وغيرها كثير تدل على ورود السخرية في القرآن الكريم وتأثيرها الفاعل في سياق التعبير عن المسالك الشاذة والعقائد الباطلة ، ولقد آتت ثمارها حيث وجهت سهامها النافذة وطعناتها المصمية نحو أولئك المتعاظمين فكانت من أبلغ العظات التي يناط بها ذم التكبر والتكذيب وما يعقلها إلا العالمون[٢]

❁❁❁❁❁

(١) التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور التونسي الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ هـ

(٢) لمزيد من النماذج ينظر : التصوير الساخر في القرآن الكريم د .عبد الحليم حفني

المبحث الثاني

الترغيب والترهيب

الثواب والعقاب وسيلة من وسائل التهذيب والتربية التي تساعد على صيانة المجتمعات الإنسانية من غوائل الانحراف والشذوذ، من خلال تأديب الجاني والترهيب من الجناية والتخويف من العذاب ، وحث المؤمن على أن يتمسك بدينه ويستزيد من العمل الصالح رغبة فيما عند ربه من الثواب ، ولست أبالغ حين أزعم أن المفارقة التصويرية أرقى الأساليب التي تحقق هذه الغايات التربوية لأن الجمع بين نماذج الخير ونماذج الشر وتبين مصائرهما يعد من أهم بواعث الإقبال على الطاعات والاستزادة من أعمال الخير فضلا عن التنفير من مسالك الشر وغوايات العصاة والمنحرفين.

وفي سورة التوبة تصافح الأعين لونا من البسط والتفصيل في حكاية أوصاف المنافقين وما ينتظرهم من العقوبات ، كما تظفر بعدد من سمات المؤمنين وما أعد لهم من الثواب والتكريم ، يقول الحق سبحانه :(الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ . كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ . أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وأول ما يلفت الأنظار هو ذلك السلك الناظم لجماعات المنافقين برغم تباعد الآماد وتنوع صور النفاق : (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) مسالكهم واحدة وصفاتهم متشابهة وفي المقدمة من هذه الصفات الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف فضلا عن سوء الطوية ولؤم السريرة وقبض الأيدي عن إسداء الخير ونسيان الله وجحود آلائه ، وحسبك بهذه الصفات دليلا على انتكاس الفطرة وكفر النعم ، ثم يأتي العقاب الإلهي الذي توعد به المنافقين وهنا نلحظ التدرج في الأوصاف الذي يسلم إلى العقوبة بأسلوب هو أقرب إلى المقدمات التي تفضي إلى النتائج والمواقف التي تنبيء بالمصائر .

واستكمالا للصورة وجمعا لطوائف المنافقين والكافرين على مر العصور تربط الآيات بين أولئك المنافقين وأشباههم من المنحرفين لتثبت أن لهذه الفئة الضالة نظائر في التاريخ البشري : (كالذين من قبلكم .....) فهؤلاء الأقوام فتنوا بأموالهم وقوتهم ولم يتفطنوا إلى إمهال الله لهم فكانت عاقبتهم الخسران والمقت ، واستكمالا لهذه الموعظة البليغة تعرض الآيات مشاهد العقوبات التي نزلت بالأمم السابقة كقوم نوح الذين أهلكهم الطوفان ، وقوم عاد الذين أهلكوا بريح صرصر عاتية ، وقوم ثمود الذين أخذتهم الصيحة ، وقوم إبراهيم الذين أهلك الله طاغيتهم النمروذ ، وأصحاب مدين الذين أخذهم عذاب يوم الظلة ، والمؤتفكات وهي قرى قوم لوط التي جعل الله عاليها سافلها ، لكنها البصائر العمياء والقلوب التي رانت عليها الغفلة والعقول التي أمست ميدانا للبطر والكبر .

وفي مقابل هؤلاء المنافقين تتجلى سيمياء الإيمان وصفات المؤمنين وما أعد الله لهم من الثواب والتكريم : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض

.....) (أَيْ قُلُوبُهُمْ مُتَّحِدَةٌ فِي التَّوَادِّ وَالتَّحَابِّ وَالتَّعَاطُفِ) [1] (١) وهو وصف يدل على التضامن والتعاون والتكافل والتماسك بعكس شراذم المنافقين الذين لا يعقلون شيئا من تلك المعاني الراقية والروابط الإيمانية ، وإذا كانت الآيات السابقات تضمنت عددا من صفات المنافقين كالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي عن الجهاد وسائر أفعال الخير فضلا عن نسيان الله ، فإن الآيات التي نحن بصددها تركز على عدد من صفات المؤمنين وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فضلا عن طاعة الله ورسوله ، وهي أوصاف تدل على وحدة الصف والتعاون على الخير والتواصي بالحق والحرص على تقوية الأواصر الإيمانية التي تربطهم بالخالق من جهة والمخلوقين من جهة أخرى ، يضاف إلى ذلك تلك الإشارات القرآنية إلى مصائر الفريقين وما أعده الله من الرحمة للمؤمنين واللعن والطرد للمنافقين مع شيء من البسط في بيان الثواب دون العقاب: (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات .....) وهنا يبين سبحانه ما ينتظر المؤمنين من الجنات والأنهار والخلود في النعيم والمتاع بالمساكن الطيبة ، وأهم من هذا وذاك رضوان الله عليهم ونظرهم إليه سبحانه ، بينما اكتفي بالتعقيب على عقاب المنافقين بتلك العبارة الموجزة (أولئك هم الخاسرون) التي تشير إلى خسارة المنافقين لكل ما ذكر من صنوف النعيم تعبيرا عن ضآلتهم وحرمانهم ، وبهذا الاقتران بين مواقف المنافقين ومصائرهم من جهة ومواقف المؤمنين ومصائرهم من جهة أخرى تتجلى غايات المفارقة وتتحقق المقاصد القرآنية التي تدفع الناس دفعا إلى الإقبال على الطاعات والنفور من المعاصي رغبة في الثواب ورهبة من العقاب .

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ت أحمد البردوني دار الكتب المصرية ط الثانية ١٩٦٤، ١٩٩/٨

وفي سورة إبراهيم نقرأ قوله سبحانه في إطار الترغيب في الاتباع والحض على التوحيد والأمر بتخير ما يثيب من الأقوال والأعمال : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ الْمُؤْمِنُ ، وقَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ : الشَّجَرَةُ النَّخْلَةُ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : أَصْلُ الْكَلِمَةِ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ – وَهُوَ الْإِيمَانُ – شَبَّهَهُ بِالنَّخْلَةِ فِي الْمَنْبَتِ، وَشَبَّهَ ارْتِفَاعَ عَمَلِهِ فِي السَّمَاءِ بِارْتِفَاعِ فُرُوعِ النَّخْلَةِ، وَثَوَابَ اللَّهِ لَهُ بِالثَّمَرِ ، والْكَلِمَةُ الْخَبِيثَةُ كَلِمَةُ الْكُفْرِ ، وَقِيلَ الْكَافِرُ نَفْسُهُ ، وَالشَّجَرَةُ الْخَبِيثَةُ شَجَرَةُ الْحَنْظَلِ (اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ) اقْتُلِعَتْ مِنْ أَصْلِهَا، (مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) أَيْ مِنْ أَصْلٍ فِي الْأَرْضِ، وَقِيلَ مِنْ ثَبَاتٍ، فَكَذَلِكَ الْكَافِرُ لَا حُجَّةَ لَهُ وَلَا ثَبَاتَ وَلَا خَيْرَ فِيهِ، وَمَا يَصْعَدُ لَهُ قَوْلٌ طَيِّبٌ ولأعمل صَالِحٌ) [1]

والآيتان الكريمتان – وكل الآيات كريمات – تسلطان الضوء على البون الشاسع بين النماذج البشرية مع التوظيف المعجز لأسلوب المفارقة ، ومعروف أن ضرب الأمثال من أكثر الطرائق التعبيرية تجسيدا للمعاني وإيقاظا للملكات وحفزا للمتلقين ، والمثل هاهنا يضرب بالكلمة ، وما أدراك ما الكلمة ؟ إنها باب الإيمان وكلمة التوحيد التي تضرب بجذورها في أعماق الأنفس المؤمنة وتستقر بين جوانحها وتملك عليها أقطارها فيستحيل البشري نفسا خيرة وروحا شفافة تعبق بشذى الإيمان وتنشر الخير في الكون كله وتحمل النفع للبشر أجمعين ، وما أجمل الربط بين بين تلك الشجرة الوارفة الظلال اليانعة الثمار وبين النخلة التي كثر ما شبه الرسول بها المؤمن (فهي تؤتي أكلها في أوقات

(١) تفسير القرطبي ٩ / ٢٥٨

مختلفة كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يوكل في جميع الأوقات ، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير في الأوقات كلها) [١].

ثم تسلط الأضواء القرآنية على النموذج البغيض لما يتصف به من الكفران والجحود فاستحق أن يشبه بأقبح الأشجار وهي الحنظلة التي لا تحمل ثمرا ولا تنشر خيرا ، وهي قبل هذا وذاك لا جذر يسندها ولا أصل يثبتها فهي تتهاوى وتضطرب وكذا الكافر والمشرك لا خير فيه يرجى ولا نفع منه ينتظر لأنه ينبعث من أهواء نفسيه ورغبات جاحدة ونزعات معاندة ، وحسب المفارقة هنا أن تظهرنا على ذينك النموذجين وتجمع بينهما في ربقة لتكون مثارا لاختيار العقلاء وهداية لعواطف الأخيار وباعثا على سلوك الطريق دون إكراه أو إجبار .

وفي سورة آل عمران توظف المفارقة اللون لإبراز المعنى في صورة محسوسة، يقول الحق سبحانه : (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)، (قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُبْعَثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ تَكُونُ وُجُوهُ الْمُؤْمِنِينَ مُبْيَضَّةً وَوُجُوهُ الْكَافِرِينَ مُسْوَدَّةً ، وَيُقَالُ : إِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، إذا قَرَأَ الْمُؤْمِنُ كِتَابَهُ فَرَأَى فِيه حَسَنَاتِهِ اسْتَبْشَرَ وَابْيَضَّ وَجْهُهُ، وَإِذَا قَرَأَ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ كِتَابَهُ فَرَأَى فِيهِ سَيِّئَاتِهِ اسْوَدَّ وَجْهُهُ ، وَيُقَالُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ يُؤْمَرُ كُلُّ فَرِيقٍ بِأَنْ يَجْتَمِعَ إِلَى مَعْبُودِهِ، فَإِذَا انْتَهَوْا إِلَيْهِ حَزِنُوا وَاسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ، فَيَبْقَى الْمُؤْمِنُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ :" مَنْ رَبُّكُمْ"؟ فَيَقُولُونَ : رَبُّنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ لَهُمْ: " أَتَعْرِفُونَهُ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ". فَيَقُولُونَ : سُبْحَانَهُ! إِذَا اعترف عرفناه فيرونه كما شاء الله ، فَيَخِرُّ الْمُؤْمِنُونَ سُجَّدًا لِلَّهِ تَعَالَى، فَتَصِيرُ وُجُوهُهُمْ مِثْلَ الثَّلْجِ بَيَاضًا، وَيَبْقَى الْمُنَافِقُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ لَا

(١) تفسير القرطبي ٢٥٨

يَقْدِرُونَ عَلَى السُّجُودِ فَيَحْزَنُوا وَتَسْوَدُّ وُجُوهُهُمْ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:" يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ"(١)

والآيتان تصوران مشهدا يفيض باللون والحركة والجمع بين الحسي والمعنوي من الأوصاف التي تتجسد في صورة آدميين تتفاوت مصائرهم وتتباين ألوانهم بين السواد والبياض (واللون الأسود رمز للحزن والألم والموت ، وكذلك رمز للخوف من المجهول والميل إلى التكتم ، ولكونه سلب اللون فإنه يدل على العدمية والفناء ، والأبيض ضد السواد وهو رمز الطهارة والصدق والنقاء ، وهو عند الشعراء الأكثر استخداما لأنه يقترن لديهم بالصفاء والإشراق ويبعث في نفوسهم الفأل والاستبشار) (٢) فالمؤمنون وجوههم مبيضة قد أشرقت بالنور والضياء وفاضت بشرا وسعادة والكافرون وجوههم مسودة من الحزن مغبرة من فرط الكآبة فضلا عما يوجه إليهم من التأنيب والاستنكار واللوم والتقريع : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، (والسر في اختيار الوجه أنه تنعكس عليه الحالة النفسية من دون غيره من أعضاء الجسم وفيه حكمة بالغة ليعبر عما في الجوانح من أحاسيس وهموم وخوف وألم ، وهذه الصورة الإنسانية الكئيبة التي تصور حال الكافرين من شأنها أن تفعل فعلها المؤثر في النفوس ، فتعمل على التنفير من الأخلاق الذميمة ونكران الجميل والكفر والكفران بنعم الله التي لا تعد ولا تحصى) (٣).

وفي سورة الطور يجد المرء نفسه أمام عدد من الصور الأدبية والمفارقات التصويرية التي يقترن في إطارها الثواب والعقاب بطريقة لا ترقى إليها بلاغة بشر ، يقول الحق جل في علاه : ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ

(١) جمالية اللون في الشعر الأندلسي للباحثة الجزائرية وسيلة رحالي ٢٠١٥،٤٩

(٢) ظاهرة اللون في القرآن الكريم محمد قرانيا ، مجلة التراث العربي العدد٧٠يناير ١٩٨٩، ١٨

(٣) مفاتيح الغيب للرازي دار إحياء التراث العربي ط الثالثة١٤٢٠ هـ ج ٢٨ ص١٩٨

الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾)

وتبدأ السورة بالقسم بالظواهر الكونية والمخلوقات الدالة على العظمة الإلهية والاقتدار الرباني كالجبل الشاهق والبيت المعمور بالملائكة والسماوات المتعالية والبحر المضطرم بالنيران المتأججة ، بيد أن تلك المشاهد التي تقذف الرعب في النفوس وتنشر الفزع في القلوب لا تعدو أن تكون مقدمات لما يلقاه المكذبون في جهنم من العذاب والتنكيل لذا كان الدفع بقوة إلى قيعان جهنم (فويل يومئذ للمكذبين ٠ الذين هم في خوض يلعبون ٠ يوم يدعّون إلى نار جهنم دعّا) يعقبه لون من التبكيت يناسب ما كانوا عليه من الخوض والاستهزاء : (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) ، ثم يصدر الحكم الإلهي : (اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم .... الآية) ،

وهكذا ينتهي ذلك المشهد البائس والمصير المفزع يتلوه مشهد التنعيم لوفود المتقين إمعانا في التعذيب النفسي لجموع الكفار وإدخالا للسرور على

المؤمنين وتبشيرا لهم ، (وعَلَى مَا هُوَ عَادَةُ الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِ بَعْدَ بَيَانِ حَالِ الْكَافِرِ، وَذِكْرُ الثَّوَابِ عَقِيبَ ذِكْرِ الْعِقَابِ لِيَتِمَّ أَمْرُ التَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ) ، يقول تعالى : (إن المتقين في جنات ونعيم ٠٠٠٠٠الآيات) ويتصدر المشهد طوائف المتقين وهم في حال من الغبطة والسرور والتفكه المرح بما أفاء الله عليهم من صنوف النعيم وألوان المتع واللذائذ الحسية والمعنوية من أكل وشرب وصحبة الأخيار ومرافقة الذراري والأهلين ، (وفِيهِ بَيَانُ أَسْبَابِ التَّنْعِيمِ عَلَى التَّرْتِيبِ، فَأَوَّلُ مَا يَكُونُ الْمَسْكَنُ وَهُوَ الْجَنَّاتُ ثُمَّ الْأَكْلُ وَالشُّرْبُ، ثُمَّ الْفُرُشُ وَالْبُسُطُ ثُمَّ الْأَزْوَاجُ، فَهَذِهِ أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ ذَكَرَهَا اللَّهُ عَلَى التَّرْتِيبِ، وَذَكَرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) وَفِيهِ أَنَّ شَفَقَةَ الْأُبُوَّةِ كَمَا هِيَ فِي الدُّنْيَا مُتَوَفِّرَةٌ كَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى بَقَاءِ عَمَلِهِمْ كَمَا كَانَ وَالْأَجْرُ عَلَى الْعَمَلِ مَعَ الزِّيَادَةِ ، وَقَوْلُهُ : يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً فَيَكُونُ ذَلِكَ عَلَى عَادَةِ الْمُلُوكِ إِذَا جَلَسُوا فِي مَجَالِسِهِمْ لِلشُّرْبِ يُدْخَلُ عَلَيْهِمْ بِفَوَاكِهَ وَلُحُومٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: يَتَنازَعُونَ أَيْ يَتَعَاطَوْنَ وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ التَّنَازُعُ التَّجَاذُبُ وَحِينَئِذٍ يَكُونُ تَجَاذُبُهُمْ تَجَاذُبَ مُلَاعَبَةٍ لَا تَجَاذُبَ مُنَازَعَةٍ، وَفِيهِ نَوْعُ لَذَّةٍ (وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ) كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ أي في الصفاء، ومَكْنُونٌ لِيُفِيدَ زِيَادَةً فِي صَفَاءِ أَلْوَانِهِمْ) [1]

والمفارقة التصويرية في السرد المتأني لألوان النعيم كما تسلط الضوء على تصاعد زفرات الألم في صدور المكذبين لما لاقوه من العذاب تارة وما رأوه من نعيم المؤمنين تارة أخرى ليكون ذلك إمعانا في إذلالهم وتحقيرا لشأنهم جزاء ما ارتكسوا فيه من التهكم والاستهزاء .

وفي سورة الحاقة تتكرر المقارنة بين مشهدين من أجلّ المشاهد التي تملأ نفوس المؤمنين غبطة وسرورا وتحكي قصة التكريم ومشهد المفاخرة والمباهاة

(١) مفاتيح الغيب للرازي دار إحياء التراث العربي بيروت ط : الثالثة ١٤٢٠ هـ ٢٨، ١٩٨

كما تزلزل كيان الكفار وتصف المعاندين بالذلة والهوان وتكسوهم ثياب الخزي والعار ، وتبتدئ المشاهد بتطاير الصحف حيث يؤتى كل امرئ بكتاب أعماله وهنا يباهي المؤمن أهل الموقف ببشائر النجاح وأمارات الظفر ألا وهي تلقي الكتاب باليمين فتراه مسرورا مغتبطا مباهيا نظراءه وشانئيه في وقت معا ، (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه ٠ إني ظننت أني ملاق حسابيه فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٠ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٠ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٠كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ) ، (يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ سَعَادَةِ مَنْ يؤتى كِتَابَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِيَمِينِهِ وَأَنَّهُ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ يَقُولُ لِكُلِّ مَنْ لَقِيَهُ : {هَآؤُمُ اقرأوا كِتَابِيَهْ} أي خذوا اقرأوا كِتَابِيَهْ، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي فِيهِ خَيْرٌ وَحَسَنَاتٌ مَحْضَةٌ، لِأَنَّهُ مِمَّنْ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حسنات وقوله تعالى : {إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَهْ} أَيْ قَدْ كُنْتُ مُوقِنًا فِي الدُّنْيَا، أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ كائن لا محالة : {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ} أَيْ مُرْضِيَّةٍ، {فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} أَيْ رَفِيعَةٌ قُصُورُهَا، حِسَانٌ حُورُهَا، نعيمة دُورها، دائم حبورها، وقوله تعالى: {قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ} أَيْ قَرِيبَةٌ يَتَنَاوَلُهَا أَحَدُهُمْ وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى سَرِيرِهِ) [1].

وفي هذا دليل أن النعيم الأخروي إنما يبتدئ باليقين الدنيوي في لقاء الله وصدق العرض عليه وجلال الوقوف بين يديه وسرعان ما تتحقق البشارة وتتوالى النعم الحسية والمعنوية ، وليس أدل على ذلك من تلك المعيشة الهانئة الراضية حيث المقام في أعلي الفراديس والتلذذ بأطايب الطعام وصنوف الشراب ،ثم تنقلنا الآيات صوب المشهد المقابل كي تكتمل الصورة وتتحقق عناصر المفارقة (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ٠ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ٠ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ٠مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ٠ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ٠ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ٠ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ت محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم، ط السابعة ١٩٨١ م ٥٤٣

سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ **فليس** لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ) (وَهَذَا إِخْبَارٌ عَنْ حَالِ الْأَشْقِيَاءِ إِذَا أُعْطِيَ أَحَدُهُمْ كِتَابَهُ فِي الْعَرَصَاتِ بشماله فحينئذٍ يندم غاية الندم، {فيقول لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ مَآ ۖ غْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَّلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ} أَيْ لَمْ يَدْفَعْ عَنِّي مَالِي وَلَا جَاهِي عَذَابَ اللَّهِ وَبَأْسَهُ، بَلْ خَلُصَ الْأَمْرُ إِلَيَّ وَحْدِي، فَلَا مُعِينَ لِي وَلَا مُجِيرَ فَعِنْدَهَا يَقُولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: { خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} أَيْ يَأْمُرُ الزَّبَانِيَةَ أَنْ تَأْخُذَهُ عُنْفًا مِنَ الْمَحْشَرِ فَتَغُلُّهُ، أَيْ تَضَعُ الْأَغْلَالَ فِي عُنُقِهِ، ثُمَّ تُورِدُهُ إِلَى جَهَنَّمَ فَتُصْلِيهِ إِيَّاهَا) [1]

وهنا تتصاعد الحسرات والآلام متضافرة مع حروف المد المتتالية وأصوات النداء المتعالية في فضاء جهنم فضلا عما يصاحبها من الصراخ والعويل المتصاعدين من تلك الحناجر البغيضة تمهيدا لما أعدّ لأصحابها من العذاب والتنكيل ، وهنا يطول العرض لما يراد به من إطالة الشعور بالحسرة والندامة حتى يتمنى ذلك البائس أنه لم يأت هذا الموقف ولم يؤت كتابه ولم يدر شيئا عن حسابه كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلا ، ثم يتحسر على ما كان يعتز به أو يجمعه : «ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ» .. «هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ» .. (فلا المال أغنى ولا السلطان نفع ولا شيء يحول بينه وبين السلاسل المتطاولة التي تصفد فيها أطرافه ولو أنها سلسلة واحدة لكفى لكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين ومدّها وطولها ووقعها)[2]

وينتهي هذا المشهد العنيف الذي جاء في هذه الصورة المفزعة التي تقرع آذان الجبابرة في كل زمان وتجبههم بما يزلزل كيانهم ويناسب ما كانوا عليه من

(١) مختصر تفسير ابن كثير محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم، بيروت ط : السابعة، ١٩٨١ م ٥٤٣.

(٢) السابق ٥٤٤

الطغيان والجبروت ، إنها الحقائق الأخروية والثوابت الغيبية يصورها القرآن الكريم بأيسر العبارات وأرقى الأساليب وفي طليعتها أسلوب المفارقة الذي هو أجدر الأساليب وأقدرها على تلبية حاجات الدعاة والمصلحين والوفاء بما يتطلعون إليه من الترغيب والترهيب .

وفي سورة المطففين يقول المولى سبحانه : (كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ . الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ . ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ٠ كلاَّ إِنَّ كِتابَ الْأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ . وَما أَدْراكَ مَا عِلِّيُّونَ . كِتابٌ مَرْقُومٌ . يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ . إِنَّ الْأَبْرارَ لفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ ينْظُرُونَ تعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ .خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ .وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ)

والآيات تصور مشهدين جوهرهما التناقض وعمادهما المفارقة حيث تتراءى للجميع صورة كتاب الفجار وقد ألقي به في أسافل النيران وأحقر الأماكن وأكثرها ضعة وامتهانا نكاية بهم وتحقيرا لهم جزاء تكذيبهم وعنادهم ، وإذا كان أهل الإيمان يكافأون بالنظر إلى وجه الله الكريم فهؤلاء يحال بينهم وبين ذلك فتراهم قد حجبوا عن ربهم وحرموا لذة النظر إليه سبحانه عقابا لهم على الران الذي اصطنعوه في الدنيا ليكون حاجزا بينهم وبين الإيمان والتصديق ، ثم تنقلنا الآيات صوب المشهد المتعالي والصورة الباذخة التي يتراءى فيها كتاب الأبرار الأطهار في أعالي الجنات والفراديس ، وحسبك بالعلو دليلا على التكريم وبرهانا على الفوز والظفر ، وها هم أولاء يباهون الملائكة المقربين في زهو محبب ويعتلون الأسرة وينظرون إلى صنوف النعيم في حبور ، ما أبدعه من وصف وما أروعها من كلمات تجسد النعيم الأخروي أجمل تجسيد ويكفي دليلا على ذلك تخير الفعل المضارع (ينظرون ، يسقون ، يشرب) الذي يحيل

الأمور الغيبية والمشاهد الأخروية واقعا ملموسا ومتعة محسوسة تكاد تلامسها الأيدي وتتذوقها الألسن وتبصرها العيون .

وتتجلى معالم المفارقة بين عقاب الطغاة وثواب المتقين في سورة النبأ حيث يقول الحق جل في علاه : (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً (٣١) حَدائِقَ وَأَعْناباً (٣٢) وَكَواعِبَ أَتْراباً (٣٣) وَكَأْساً دِهاقاً (٣٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذَّاباً (٣٥)جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً (٣٦)

وتبدأ الآيات ببيان مصير الطغاة ليتناسب مع السورة التي تعبر منذ البداية عن مشاهد القيامة بطريق تبث الرعب في القلوب زجرا للعصاة وترهيبا لمن حق عليه العذاب الأخروي ، وفي المشهد الأول تتراءى للأعين صورة الطغاة تلاحقهم صواعق النيران وألسنة اللهب فلا يملكون لدى محاولاتهم الهرب سوى الرجوع إليها والمكث فيها بلا راحة ولا طعام ولا شراب سوى الحميم والغساق ، ثم تأتي الإجابة عما قد يثور من تساؤلات عن السر في استحقاقهم هذا العذاب الواصب والألم القاتل : (إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا) ، إنها سيئاتهم التي أحصيت وموازين أعمالهم التي خفت وصحائفهم التي طاشت وتطايرت ولا يظلم ربك أحدا ،

وعلى النقيض . وكما هو الحال في أسلوب المفارقة . يأتي المشهد المقابل ليقص علينا طرفا من نعيم الأتقياء وثواب المؤمنين وكفى بما ذكر في الآيات من الفوز دليلا على النعيم وإجمالا لأنواع الثواب ، مع تخير للعبارات الجامعة والكلمات الموحية لتؤكد بما لا يدع مجالا لأدنى شك أن المرء مجزي بأعماله وأن العطاء الإلهي لا حدّ لمنتهاه .

ومن نماذج المفارقة في سورة الرحمن : (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي

يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

(يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) عبارات حاسمة وكلمات معدودة توجز ألوانا من العقاب وصنوفا من الإهانات التي تنتظر أولئك المجرمين المكذبين ، وحسبك تلك الصورة البائسة التي تضم فيها النواصي إلى الأقدام في صورة قد بلغت الغاية في التحقير والإهانة تمهيدا للإلقاء في قعر جهنم وأسافل النيران ، كما تشير إلى ما خلف الصورة من العذاب والنكال، حتى إذا شارفوا عليها وذاقوا لهيبها تجبههم تلك العبارة الساخرة (هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون) لتكون زاجرا لهؤلاء ومن سلك طريقهم البغيض في كل زمان ومكان ، وهاهم أولاء تطوف بهم ملائكة العذاب من نار

إلى نار ومن جحيم إلى جحيم ، وجاء التعبير بالفعل المضارع (يطوفون) استحضارا لصورتهم الذليلة وتأكيدا لاستمرار العذاب وتكراره وتنوع صوره وأشكاله.

وكما ذكرت الآيات نوعين من العذاب للمجرمين وهما طوافهم بين النار وبين الحميم نراه يثني بذكر الجنتين بما تدلان عليه من أنواع التكريم للمؤمنين فضلا عما يترتب على اجتماع الجنتين من نعيم الروح ونعيم الجسد ، وهاهم أولاء في الجنة الأولى يتمتعون بين الأشجار الظليلة والأغصان الوارفة والأنهار الجارية والمياه العذبة والفواكه المتنوعة والفرش الوثيرة والقطوف الدانية والحور المقصورة ، وفي الجنة الثانية يستقبلون بما تنشرح به صدورهم من الأشجار والثمار والمياه والخضرة الكثيفة والعيون الفوارة والفواكه المحببة (ثم تكتمل سعادة النفس بصحبة الجميلات العفيفات من النساء وقد اجتمع لأهل الجنة كل هذا على غاية ما يكون مما لا يتحقق في الدنيا) [1] (١)

ونظير ما سبق قول الله عز وجل في سورة الواقعة : (وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً (٣٦) عُرُباً أَتْرَاباً (٣٧) لأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِنْ الأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِنْ الآخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوْ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ

(١) المقابلة في آيات الجزاء ، دراسة دكتوراه للباحثة رباب صالح جمال إشراف أد . محمد أبو موسى جامعة أم القرى سنة٢٠٠٠ ،١ج ، ١٥٠

الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (٥٦)

وهنا تسلط الأضواء القرآنية الساطعة على ما أعد للمؤمنين من صنوف النعيم مبتدئا بهذا التساؤل المحبب : (ما أصحاب اليمين) ليوقظ الأذهان ويبعثها على التلقي (في سدر مخضود) يعني لا شوك فيه وإنما ثمر خالص وفاكهة لا تشوبها شائبة ولا يكدر صفو التنعم بها شوك ولا أذى ، (وطلح منضود) وهو وصف لنوع متكاثر محبب من الفاكهة وهو الموز الذي يشبه فاكهة الدنيا في الاسم والشكل دون الطعم والمذاق ، وصدق الله إذ يقول : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها) كما تتراءى من خلال الآيات صورة الظل الممدود الذي حدث عنه النبي وأوجزته هاتان الكلمتان : (وظل ممدود) ، (فعن أبي هريرة قال ﷺ : (إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤا إن شئتم : وظل ممدود)[١] وقوله تعالى : (وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة) أي عندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقوله: لا مقطوعة ولا ممنوعة، أي لا تنقطع شتاء ولا صيفا بل أكلها دائم مستمر أبدا، وقوله (وفرش مرفوعة) أي عالية وطيئة ناعمة، (إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أترابا) أي أعدناهن في النشأة الأخرى أبكارا بعد الثيوبة، وعربا أي متحببات إلى أزواجهن وتدل على حسن التبعل)[٢]

(وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم) ، (والسموم الهواء الحار والحميم الماء الحار أيضا ، وظل من

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٥٠ باختصار
(٢) السابق ٣٥٠

يحموم يعني ظل الدخان الأسود ، لا بارد ولا كريم : ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر، (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) أي منعمين في الدنيا مقبلين على لذات أنفسهم ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم) : وهو الكفر بالله وقيل الشرك وقيل اليمين الغموس ، (وكانوا يقولون أإذا متنا وكنا ترابا وعظام أإنا لمبعوثون) يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه ، (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون .....) أي سيجمعون إلى عرصات القيامة في يوم محدد ووقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ، (ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ۝ لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ۝ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ۝ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنْ الْحَمِيمِ ۝ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ۝ يأكلون الزقوم ويشربون الحميم كما تشرب الإبل العطاش ، وقيل إن الهيم داء يصيب الإبل فلا تروى حتى تموت، (هذا نزلهم يوم الدين) أي ضيافتهم عند ربهم يوم الحساب) [1].

ومن العرض السابق يتبن مدى التناسب بين المقاصد القرآنية والمفارقة التصويرية والوفاء بمقتضيات السياق فضلا عما تتيحه من التمييز بين سبيلي الخير والشر ليكون باعثا على الاختيار الرشيد دون إكراه أو إجبار .

❁❁❁❁❁

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٥٠

المبحث الثالث

مفارقة الشخصيات

الإعجاز القرآني في تصوير الشخصيات الإنسانية والنماذج البشرية لا تدانيه مواهب الكتاب وبراعة الأدباء ، ذلك أنه يرسم أرقى النماذج وأكثرها خلودا وأغناها بالحياة بكلمات معدودة وعبارات محدودة في سهولة ويسر ، ومن مقاصد حضور الشخصيات في القرآن الكريم التنوع بين شخصيات تتجلى فيها قيم الحق والخير والطاعة والهداية ، وأخرى تجسد ألوان الباطل والشر والغواية والضلال وهذا ما تعبر عنه المفارقة أجمل تعبير وأوفاه ،

والمقصود بمفارقة الشخصيات : الاستعانة بالنماذج البشرية المتناقضة في التعبير عن الفكرة وتقريبها إلى أذهان المتلقين ، ومن نماذجها قول الله عز وجل في سورة الأحقاف : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

والآيات تتضمن الوصية بالوالدين وتعد المفارقة هي المحور الأساس في تلك الوصية لأنها تقوم على المقارنة بين لونين من الشخصيات الأولى تمثل البر والثانية تدل على العقوق ، وتبتدئ الآيات بهذا التعبير الدال على عظمة الموصي واقتداره – سبحانه – على إثابة الطائع ومعاقبة العاصي : (ووصينا) مؤثرا (الإنسان) على إطلاقه دون اقتصار على مسلم أو تقييد بإيمان لأن حق

الآباء والأمهات ثابت في كل الأديان مقرر في سائر الشرائع والأعراف ، كما نلحظ تنكير (إحسانا) لتذهب نفوس المؤمنين فيه كل مذهب ، ولا تألُ جهدا في إكرام الوالدية والحفاية بهما ، ولا غرابة فإن ما يتجشمه الأبوان – لا سيما الأم – من العناء والجهد يستحيل أن يتحمله مخلوق تجاه آخر سواء في ذلك عناء الحمل والولادة والرعاية بما يكتنفها جميعا من المشاق الجسمية والنفسية، وبعد أن نوهت الآيات بحق الوالدين تعرض نموذجين متناقضين : تفطن أحدهما للحكمة الإلهية من هذه الوصايا القرآنية فقام بحق والديه خير قيام، بينما أخفق الآخر فكان جديرا بالبوار والخسران.

وبيان ذلك أن النموذج الأول قد استشعر نعمة الله بالخلق والهداية وحق الوالدين بالتربية والرعاية فتراه يمضي في طريق الحياة ممتنا لخالقه داعيا مستهديا، وبارا بوالديه مسترحما مستغفرا ، ونموذج هذا دأبه حقيق بأن يصلح الله دينه ودنياه وذريته أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وأهم من ذلك أنه ينتفع بما سطره الحفظة البررة في سجل أعماله ويجني ثمار ما قدم بأفضل ما يجزى الطائعون والصالحون ، وأما النموذج الثاني الذي يمثل الطرف الثاني من المفارقة فلم يعرف لله حقا ولا لوالديه برّا ، ولقد أجمل القرآن ألوانا من العقوق في هذين الحرفين (أف) بما يحملان من دلالات وإيحاءات تعبر عن أبغض ألوان العقوق والجحود ، بل لقد جاوز كل الحدود فتراه مكذبا باليوم الآخر بما يشهده من البعث والنشور والثواب والعقاب والجنة والنار وما يزال والداه – برغم العقوق – يهتفان ويصرخان محذرين ومشفقين ، ولا يخفى ما يحمله التحذير الأبوي من حدب وإشفاق في تلك اللحظات العصيبة.

والمتأمل في العرض القرآني لكلا النموذجين اللذين يمثلان طرفي مفارقة الشخصيات يلحظ أن النموذج الإيجابي تظلله أجواء من السكينة والطمأنينة والرضا والامتنان فضلا عن البر والوفاء واستنزال الرحمات والتنعم بالطاعات قبيل التنعم بالجنات ناهيك عن التجلي الإلهي على الآباء والأبناء والذراري بالرحمة والمغفرة والتقلب في أعالي الفراديس.

أما النموذج السلبي فعماده الشقاء دنيا وأخرى حيث التأفف والضجر والتكذيب والتهكم والصراخ والاستغاثة واليأس والاستسلام ثم العقاب والخسران وحسبنا تلك المشاهد القرآنية ترغيبا وترهيبا وتذكيرا بالمصائر قبل فوات الأوان .

ويمكن أن نعد من مفارقة الشخصيات قول الله عز وجل في سورة البقرة : (قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) ،

ولأهمية القضية وحرصا على توجيه الأنظار والقلوب نحو إخلاص العبادة لله وحده تأتي المفارقة لتظهرنا على مآل فريقين :

أما الفريق الأول فيتمثل في طائفة من ذوي اليسار لكنهم تجشموا عناء إنفاق المال – على حبه – طلبا للرياء والسمعة ثم لا ينالهم إلا البوار والخسران دنيا وأخرى ، ولكي تتضح الصورة في أذهان المخلوقين وتزداد النفوس بغضا لهذا السلوك الذميم يضرب المثل بالحجر الأملس يعلوه التراب لكنه ما لبث أن أصابته السماء بوابلها فأمسى وقد تجرد من كل ذرة من هذا التراب ، وهكذا المرائي الذي خلا قلبه من الإخلاص فإنه يمسي عاريا من الحسنات صفر اليدين من كل أجر وثواب.

وأما الفريق الثاني فيتجلى في صنيع المخلصين الأتقياء الذين آثروا طاعة الله على حظ النفس وقدموا رضا الخالق على ثناء المخلوقين ؛ والنعيم الأخروي الدائم على الثواب الدنيوي الزائل ، وقد شبههم القرآن الكريم بجنة بربوة –

وحسبك بهذا التمثيل المحبب إلى كل نفس وازعا إلى الخير وداعيا إلى الإخلاص – أصابها وابل عمّ نفعه الأسافل والأعالي وسرعان ما أخرج الثمار وأنبت الأزهار وهكذا العمل الصالح .

وفي سورة التحريم يقول الحق سبحانه : (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ . وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

والآيتان تقرران عددا من المسائل العقدية والإيمانية المهمة ، وقد لعبت المفارقة دورا حيويا في إظهار الأدران النفسية التي تخالج طوائف الكفار منذ أقدم العصور برغم ما تهيأ لها من عوامل الهداية وبواعث الرشاد ، وها نحن أولاء أمام اثنتين من أزواج الأنبياء هما امرأة لوط وامرأة نوح وهو واحد من أولي العزم من الرسل قد استنفذ طاقته وأنفق عمره المتطاول في تعبيد قومه لله عز وجل لكنه لم يملك الهداية لذوي رحمه وقرابته أعني زوجه وابنه تنفيذا للقضاء الرباني بأن الهداية بيد الله الذي قضى منذ الأزل : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وفي المقابل يخلد القرآن نموذجا للإيمان الصادق واليقين الذي تتضاءل بجانبه قوى الشر وأكثرها طغيانا وظلما وهي آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران اللتين ضربتا أروع المثل في الاعتصام بالقوة الإلهية والتحصن بالإيمان العاصم من كل الشرور .

ومن نماذج المفارقة في صورة الكهف قول الله عز وجل : (واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (٣٦) قالَ لَهُ

صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

فبعد ذكر المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والفقراء من المسلمين وافتخارهم بأموالهم وأحسابهم ضرب هذا المثل الذي يظهرنا على القيمة الأسلوبية والتعبيرية للمفارقة وأثرها في تجلية الأمور الدينية والمسائل العقدية ، حيث تتسلط الأضواء القرآنية على نوعين من الشخصيات والنماذج البشرية ، أما الأول فهو نموذج للمؤمن الذي تنساق إليه النعم الإلهية فيتلقاها حامدا شاكرا مستحضرا فضل الله فيها واقتداره سبحانه على سلبها ، وإذا قدر عليه الرزق وابتلي بالفقر والحاجة فإن شعاره هو الرضا والصبر وترقب الثواب الأخروي والنعيم الأبدي فهو بين حالين : الحمد عند النعم والصبر عند الابتلاء ، أما النموذج السلبي فيتجسد فيه البطر في أبغض صوره والكبر في أوضح معانيه وهذا صنف من البشر إن أعطي نعمة لم يشكر وإن خرج منها لم يصبر، فهو بين حالين من البطر في الأولى والجزع في الثانية ، وتأتي مفارقة الشخصيات كي تترجم ملامح الموقف متجسدة في شخصيتين محسوستين، وسواء أكانتا تنتميان إلى بني إسرائيل أم بني مخزوم[1] فإن الخصائص والسمات التي تميز كليهما واضحة للعيان ماثلة في الأذهان ، فأحدهما قد امتن الله عليه بألوان

(١) ينظر: الكشاف للزمخشري دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ج٢ص٢٧١

النعم وصنوف الخير حيث الجنات والنخيل والزروع والثمار والمال والولد لكنه برغم ذلك قد سلب نعمة الإيمان الذي يزع أصحابه على الشكر ويدفعهم دفعا إلى إسناد النعم إلى المنعم جل في علاه ، وأشد من ذلك أن تراه سادرا في غيه ممعنا في التنكر لخالقه ومكذبا بالبعث الذي وقر في القلوب وتكاثرت عليه الأدلة ، وسرعان ما يحاط بالثمر وتفنى الحدائق ويتلاشى الزرع ويكون الندم والخسران.

وأما النموذج الإيجابي للإنسان المؤمن فتتجلى في أوصافه ملامح الرضا والقناعة والإذعان فضلا عن التوحيد الخالص والتسليم المطلق بما تفد به الأقدار فتراه منكرا لهذا المسلك الكنود وذلك الكفران البغيض برغم الامتنان الإلهي بالخلق وما تلاه من سائر النعيم وصنوف التكريم ، وأهم من ذلك أن توحيد الله والتسليم بإرادته أحب إليه من تلك الزخارف الدنيوية والبريق الخادع ومن ثم تضيء أنوار الإيمان في قلبه لتسطع في سماء الآخرين هداية وإرشادا بأن يستحضر المرء فضل الله عند كل نعمة مرددا هذا الشعار الخالد (ما شاء الله لا قوة إلا
بالله) متخذا من الاعتصام بالله وقاية من الدمار الذي حاق بصاحبه فأحال نعيمه بؤسا وغناه فقرا وبطره ندما وجناته ترابا ودمارا ،

وهنا يمكن القول إن القرآن وضع نصب الأعين هذين النموذجين ليكونا ماثلين في وعي العقلاء في كل العصور جامعا بين الموقف والمصير أي الطريق الذي اختار كلاهما السير فيه والمصير الذي ينتهيان إليه ، وحسبك بهذا المصير ثوابا للطائعين وعقابا للعصاة وهذا ما يزيدنا إعجابا بأسلوب المفارقة وتعلقا بمصائر الأخيار ونفورا من مسالك الأشرار .

الخاتمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

لما كانت المفارقة محور الحياة وجوهر الوجود ولما كان القرآن كتاب الفطرة ودستور البشرية فقد كان من البدهي أن تتجلى في آياته وسوره ملامح الوجود وصورة الحياة بما يكتنفها من تناقضات ، وتتعدد صور المفارقة وتتنوع أنماطها بين مفارقة تصويرية ومفارقة لفظية ومفارقة النغمة ومفارقة السلوك الحركي ،

ولقد اقتصر البحث حول المفارقة التصويرية التي تظهر التناقض بين الطرفين المتقابلين ، وهي أعم وأشمل من الطباق والمقابلة حيث تنداح دائرتها في عدد من الآيات المتتابعة وتتآزر كلماتها وجملها لتصور مشهدا عاما وصورة كلية ، وقد تجلت في عدد من الأنماط والمقاصد منها :

- التهكم والسخرية ، وتعد سلاحا موجعا لأعداء الإسلام والنيل من الغافلين عن الهدي الرباني
- الترغيب والترهيب ، وهو من الأساليب التربوية التي أرسى القرآن دعائمها صيانة للمجتمعات الإنسانية من غوائل الانحراف وهداية البشرية .
- مفارقة الشخصيات ، وتظهرنا على الإعجاز القرآني في رسم الشخصيات وتصوير النماذج البشرية سواء في ذلك الشخصيات التي تتجلى فيها قيم الحق والخير والهداية أم التي تجسد الباطل والشر والضلال .

ولست أزعم لهذه الصفحات المتواضعة شيئا من التفرد أو الإحاطة بهذا الوجه من وجوه الإعجاز الأدبي في القرآن الكريم وحسبها أنها تضع إشارات على مفارق الطرق وتفتح الباب لمن آنس في نفسه رغبة في التأمل في البيان القرآني والإفادة مما تحمله الآيات والسور من ظلال وإيحاءات .

المراجع

١- القرآن الكريم
٢- البلاغة القرآنية في التصوير بالإشارة والحركة الجسمية د .عبد الله هنداوي م الأمانة ١٩٩٥
٣- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري دار العلم للملايين بيروت ط الرابعة ١٩٨٧
٤- التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور التونسي الدار التونسية للنشر ١٩٨٤هـ
٥- التصوير الساخر في القرآن الكريم د .عبد الحليم حفني الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢
٦- تفسير القرآن العظيم لابن كثير دار الأندلس بيروت ط أولى ١٩٦٦
٧- التفسير الوسيط د. وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ١٤٢٢
٨- تفسير القرطبي تحقيق أحمد البردوني ، دار الكتب المصرية ط : الثانية، ١٩٦٤
٩- جمالية اللون في الشعر الأندلسي للباحثة الجزائرية وسيلة رحالي ٢٠١٥
١٠- رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي جمع عيسى بن محمد الشامي كنوز الأندلس
١١- الصورة الأدبية في القرآن الكريم دكتور صلاح عبد التواب لونجمان ط الأولى ١٩٩٥
١٢- ظاهرة اللون في القرآن الكريم محمد قرانيا ، مجلة التراث العربي العدد٧٠ يناير ١٩٨٩
١٣- عن بناء القصيدة العربية الحديثة علي عشري زايد مكتبة الشباب
١٤- الكشاف للزمخشري دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ الجزء الثاني

١٥- لطائف الإشارات للقشيري ت إبراهيم البسيوني الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثالثة
١٦- مختصر تفسير ابن كثير ت محمد علي الصابوني دار القرآن الكريم، ط السابعة ١٩٨١ م
١٧- مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٠ م ج ٢٦
١٨- المفارقة التصويرية في شعر معروف الرصافى حميد ولي زادهّ مجلة إضاءات نقدية العدد الثاني عشر سنة ٢٠١٣
١٩- المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة د. محمد العبد م الآداب ط الثانية ٢٠٠٦
٢٠- المقابلة في آيات الجزاء ، دراسة دكتوراه للباحثة رباب صالح جمال إشراف أد . محمد أبو موسى جامعة أم القرى سنة٢٠٠٠ ،١ج ، ١٥٠
٢١- النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز دار طيبة ط الأولى ١٩٩٧

فهرس البحث

الموضوع	رقم الصفحة
ملخص البحث	٤٤٥٣
المقدمة	٤٤٥٥
التمهيد	٤٤٥٧
أنماط المفارقة	٤٤٥٧
المفارقة في الشعر العربي	٤٤٦٢
المفارقة التصويرية في القرآن الكريم	٤٤٦٦
المبحث الأول : التهكم والسخرية	٤٤٦٦
المبحث الثاني : الترغيب والترهيب	٤٤٧٢
المبحث الثالث : مفارقة الشخصيات	٤٤٨٨
الخاتمة	٤٤٩٤
المراجع	٤٤٩٥